أقل ما يُلْزِم به المسلم نفَسَه
(عِلْمٍ.. وَرَع.. يقين.. ذِكْر)

الشيخ/ سمير محمد حسن الفار(*)

في الماضي كان العلماء أولياء، وكانوا فريقَيْن: فريقًا للتعليم وفريقًا للتربية.
فريق التعليم يُعلِّم العقائد والشعائر والشرائع. وفريق التربية يذكِّرُ الناسَ بإحسان الله إليهم، وينبههم إلى عيوب أنفسهم ليتخلوا عنها، وشعارهم في ذلك: «طريقتنا هي: التخلي.. ثم التحلي.. ثم التجلي»، و«إن تُجاهدْ.. تشَاهدْ».

ومن توجيهات شيوخ التربية:

١- أقل ما يُلْزِم به العبد نفسه في طريقه إلى الله تعالى:

(أ) علم يَسوسه، (أي يسايس به العمل).

(ب) وورع يَحجزه.

(ج) ويقين يَحمله.

(د) وذِكر يُؤنسه.

٢- وأفضل ما يُلزِم به العبد نفسَه:

(أ) علم يسايس به العمل.

(ب) والمحاسبة.

(ج) والمراقبة.

فأقل ما يلزم به العبد نفسه:

أ- (علم يسايس به العمل): وذلك أن السعادة الأبدية في الآخرة لا تكون إلا بالعمل، والعمل لا يكون مقبولاً عند الله - تعالى - إلا إذا كان صالحًا(١) ولوجه الله - تعالى - خالصًا(٢)، ولا يكون كذلك إلا بالعلم، إذ العلم سبب للسعادة الأبدية.

ومن هنا قالوا: «ما لا يتم الواجب إلا به فتعلمه واجب» اهـ.

وفي الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٣)، وأما مَن عَبَدَ الله بغير علم فهو يفسد أكثر مما يُصلح؛ لأن الله تعالى يحب أن يُعْبَدَ بما شَرَعَ، قال - تعالى -:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف: ١١٠)

(*) عمل مدرسا للثقافة الإسلامية بالمملكة العربية السعودية سابقا، إمامًا وخطيبًا فى دولة الإمارات العربية سابقا.

(١) العمل الصالح هو العمل الموزون بميزان شرع الله والمطابق لتعاليم رسول الله ﷺ.

(٢) أي يبتغي به وجه الله وحده.

(٣) رواه أحمد ورواه ابن ماجه في مسنده.

ومن عَلِمَ أن أفضل الناس هو العالم بالله بأسمائه وصفاته وأفعاله مع علمه بأحكامه سبحانه، خف عليه الصبر على طلب هذا العلم.

وقد ورد في بعض الكتب لأحد علماء الأزهر الشريف:

«واعلم أن الجهل مقبوح والعبادة معه كالجسد بلا روح، وربما كفر الجاهل حال العبادة وهو يظن أنه بلغ الحسنى وزيادة، فعليك أيها الإنسان بتحصيل العلوم، لتصح منك عبادة الحي القيوم، لا سيما علم التوحيد؛ فإن العلوم كلها له عبيد، وبعد أن تعلم فعليك بالعمل، وإلا ازداد عليك غضب الله –عز وجل–، واعلم أن السعادة كل السعادة في العمل بالسنة ولو في أمور العادة». [٤]

وحسبنا في فضل العلم قول الله –تعالى– في شأن خير الخلق وحبيب الحق:

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣)

وفي الحديث: «مَن يُرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[٥]. فالجاهل لا خير فيه بنص الحديث.

ب – وورع يحجزه:

أي يحجزه عن كل ما يبعده عن فضل الله ورضوانه، والمقصود بالورع هو ترك كل شبهة ومحاسبة النفس في كل لمحة، والورع مِلاك الدين[٦] كما أن الطمع آفة الدين، وذرة واحدة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصلاة والصوم، وقيل: «الورع في الكلام أشد من الورع في الذهب والفضة».

وقيمة كل شيء مرتبطة بثمرته، وثمرة الورع تتلخص في سلامة الدين والعرض في الدنيا، وخفة الحساب وسلامة الربح في الآخرة، وإذا ذُكِر الورع. ذُكِرَ استجابة الدعاء.

وقد أمر القرآن بالورع، ودعا إلى أكل الحلال، قال – تعالى –:

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥)

وأمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، قال – تعالى –:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون: ٥١)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٢)

وأكدت السنة هذه المعاني الجليلة، ففي الحديث: «كن ورعاً تكن أعبد الناس»[٧].

وفي الحديث أيضاً: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[٨].

وأما في الأثر، فقد ورد أن سيدنا أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – قال: «كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام».

هذا قليل من كثير.. وإنما الدين بالدليل.

ج – ويقين يحمله:

أي يحمله على أداء الفرائض، وارتياد معالي الأمور، ولزوم الأدب مع الله والموافقة له – تعالى – في

---

(٤) العهد الوثيق – طبعة العشيرة المحمدية.
(٥) متفق عليه.
(٦) مِلاك الشيء ما يقوم به ذلك الشيء، فالقلب مِلاك الجسد.
(٧) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة.
(٨) متفق عليه.

إرادته واختياره، ويحمله على دوام إيقاظ الهمة، والثبات على الحق والعدل في كل شدة[٩]؛ إذ لا بد للمؤمن من أمر يصبر عليه وأمر يشكر عليه.. فيظل بين الصبر والشكر حتى يلقى الله.

واليقين في اللغة مأخوذ من (يَقن الماء.. إذا سكن واستقر)، وشرعاً ارتفاع الريب (الشك) في مشهد الغيب، أو ما يعبر عنه بـ(قوة الإيمان)، وقد يطلق اليقين على الموت، قال - تعالى -:

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ (الحجر: ٩٩)

أي الموت، واليقين ميدان عمل الرجال، وفي اليقين كان يتنافس المتنافسون.

وفي فضل اليقين ورد في الحديث: «... وخير ما وقر في القلوب اليقين»[١٠].

ومن ثمرة اليقين في الدنيا: الهداية، والإمامة في الدين، وراحة القلب وسروره، ثم الحكمة، قال تعالى:

﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (البقرة: ٥،٤)

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

(السجدة: ٢٤)

قالوا: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، وفي الحديث: «وإن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الرَّوْحَ والفرحَ في الرضا واليقين»[١١]، ومن هنا قالوا: لا بد لصاحب اليقين من سرور، كما لا بد لصاحب الكنز من حبور، وهذا اليقين يورث قصر الأمل، وقصر الأمل يورث الزهد في الفاني، والزهد في الفاني يورث الحكمة، ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾

(البقرة: ٢٦٩).

وأما عن ثمرة اليقين في الآخرة فهي السعادة الأبدية التي لا شقاء بعدها، قال تعالى:

﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (البقرة: ٥،٤)

أي الذين نالوا المطلوب من علام الغيوب.

واليقين مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، قال تعالى:

﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴾

(التكاثر: ٥-٧)

وفي سورة الواقعة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾

(الواقعة: ٩٥، ٩٦)

وتحصيل كمال اليقين ميسر على مَن يسره الله لَه، وهو كل مَنْ صدقت رغبته في هذا اليقين وحُسْن استعداده له، فإن الإمداد من الله على قدر الاستعداد من العبد.

ومن أسباب تحصيل اليقين: دوام الفكر، والنظر الصحيح، والعمل بالعلم، والتجربة الشخصية. فالتفكير فريضة إسلامية، وفي الحديث «لا عبادة كالتفكر»[١٢]، وهو اختيار أولي الألباب، قال الله فيهم:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩١)

(٩) حتى يصل إلى ما يرجو من المنزلة الشريفة.
(١٠) أخرجه البيهقي في الدلائل وابن عساكر.
(١١) الرَّوْح: الراحة والرحمة - رواه الطبراني.
(١٢) تفسير النسفي - لآل عمران.

أي عبثًا . فإذا لقَّح العقل الفكرة في ميدان التوحيد أثمرت له اليقين، وبالنظر الصحيح نستدل على عظمة شأن الخالق، وأنه - تعالى - يَقْدر على ما لا يَقْدر عليه أحد سواه، قال - تعالى -:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة : ٢٧)

ويقول - تعالى -:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ﴾ (الملك : ١٩)

والمسافر بالإبل يكون من فوقه السماء وحوله الجبال وتحته الأرض، فحثه القرآن على النظر والاعتبار فقال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية : ١٧-٢١).

فمن استطاع أن يعتبر من كل ما يقع بصره عليه.. فليفعل.

ومَن جاءه علم اليقين فعمل به وأخلص نيته لله، قاده ذلك إلى عين اليقين، فيرتقي من درجة الدليل والبرهان إلى رتبة الشهود والعيَان، وليس مَن سمع كمن رأى.

وأما التجربة الشخصية فتزيد صَاحبها يقينًا وإيمانًا وتسليمًا، ومثال ذلك أن النبي ﷺ قد أخبر أصحابه بما سيكون من شأن الأحزاب، فلما رأى الصحابة الأحزاب ما قالوا وما فعلوا إلا ما يرضي الله، وذكر القرآن تجربتهم فقال:

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٢٢)

ومما يُرجَى بركته في تحصيل كمال اليقين صحبة أهل اليقين، فوالله ما أفلح مَن أفلح إلا بصحبة مَن أفلح.

نسأل الله أن يُقَنّعنا بما رزقنا، ويرغبنا في الباقي، ويرزقنا يقينا نسكن إليه.

د - ومن أقل ما يلزِم به العبد نفسه (ذِكر يؤنسه):

الذكر أصل كبير في الوصول إلى العلي القدير، وهو:

منشور الولاية[١٣]، ومفتاح الهداية، ولا بد منه في البداية والنهاية، وباب الفتوح، وغذاء الروح، ومعراج السلوك إلى ملك الملوك[١٤]

وقد جعل الله لكل عبادة وقتًا محددا إلا الذكر لم يرضَ منه إلا بالكثير، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٤١، ٤٢)

وقيل: «إذا رأيتم الرجل يتكلم في النعم فاعلموا أنه على طريق الشكر، وإذا رأيتم الرجل يتكلم في الذكر فاعلموا أنه على طريق المحبة». فإن من أحب شيئًا أكثر من ذِكره.

وحقيقة الذكر أنه ضد الغفلة، إذ كيف نَغفل ونحن لم يُغفل عنا؟!

ومن أحسن ما ورد في مجلة الأزهر هذه العبارة: «الذاكر حين ينفتح لربه جنانه، ويلهج بذكره لسانه، يمده الله بنوره، فيزداد إيمانه إيمانًا ويقينه يقينا، ويسكن قلبه إلى الحق ويطمئن»[١٥]

---

(١٣) مرسوم الولاية.

(١٤) من كلام أهل التصوف السني.

(١٥) عدد محرم ١٤٣٨. عاطف مصطفى - بين الطرق الصوفية في مصر.

قال – تعالى –:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨)

وفي الحديث القدسي عن رب العزة: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني»(١٦).

وقد عدّد الله صور الذكر للمؤمنين لطفا منه بهم حتى لا يملوا العبادة، ففي شرعه – تعالى –: الفكر ذِكْر (وفكر ساعة خير من عبادة ليلة)، والتسبيح والتحميد والتهليل ذكر (وتسبيحة واحدة يتقبلها الله منك خير لك من ملك سليمان عليه السلام)، وقراءة القرآن ذِكْر (اللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ)، والصلاة ذِكْر وهي صلة برحمة الله، شرعها الله وأحب أن يديم علينا بها نعمة اللقاء به، والاستغفار والصلاة على المختار ذِكْر، وأَوْلَى الناس بالنبي ﷺ يوم القيامة أكثرُهم عليه صلاة. والدعاء ذكر (وهو مخ العبادة)، والأمر بالمعروف وغوث الملهوف.. ذِكر.

وأما عن ثمرة الذكر، قال تعالى:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٥٢)

فكل ذاكر لله.. مذكور من الله؛ لذا قالوا: اجعل ساقية (فاذكروني) على سَاحل (أذكركم)، وقيل من كان في الدنيا مشغولاً بالله.. فهو في الآخرة مشغول بالله

﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

(القيامة: ٢٢،٢٣)

وورد في الحِكَم: «من لم يكن له وِرْد، فليس له وَارِد» اهـ.

وكأن الله – تعالى – يقول – في آية البقرة –: فاذكروني بالتوحيد.. أذكركم بالتأييد، اذكروني بالشكر.. أذكركم بالمزيد، اذكروني بالتقوى.. أذكركم بالكرامة، اذكروني بالتوكل.. أذكركم بالكفاية، اذكروني بالحب.. أذكركم بالقرب، اذكروني بالعبودية.. أذكركم بالربوبية.. إلخ.

هذا وأفضل آداب الذكر: أن يكون بحضور القلب مع الهيبة والتعظيم.

---

(١٦) «أنا عند ظن عبدي بي» – رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.